وحدة الفكر الاسلامى

هى رسالة الأزهر - والطرق الصوفية

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقى سرور

استمعت فى قاعة المحاضرات الكبرى ، للجامعة الأزهرية ، إلى محاضرة الصديق الأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمى ، وكان موضوع المحاضرة : « المبادىء الإسلامية للحياة الروحية »

وتحدث الدكتور العالم عن التصوف الإسلامى ، فصعد به إلى ينابيعه الأولى إلى الكتاب والسنة ، وحياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه بشقيها .

لقد كان رسول الله ، وهو يبحث عن الحقيقة الخالدة ، ويتلمس الأنوار الهادية قبل بعثته ، يتحنث فى غار حراء تحنثا صوفيا .

لقد اعتزل الدنيا ، ونأى بنفسه عن حياة قومه ، وارتفع بروحه وبقلبه وبإنسانيته ، عن حياة الأرض ، وماتدفع إليه من هوى ، وماتصطرع فيه من شهوة ، وماتفتات به من حقد وعنف وجاهلية .

واعتكف مع تأملاته ومجاهداته ، يصفى نفسه ويخليها ويحليها ، ويطهر قلبه ويزكيه ، ويعده لحياة الصفاء والنقاء والتطلع إلى السماء .

كان يتأمل ويتفكر فى ملكوت السموات والأرض ، فيطيل التأمل ، ويطيل التفكر ، فيرى وجه ربه الكريم ، يتجلى مشرقاً مبيناً ، فى آفاق الكون ، مدبرا وصانعا وخالقا ورحيما ، فسبح بحمده ، وتبتل له ، وانقطع إليه ، حتى قالت العرب : « إن محمداً قد عشق ربه » .

ثم أشرقت الأرض بنور ربها ، وتجمع النور فى غار حراء فى الخلوة الصوفية فكان البعث ، وكانت الرسالة .

وجاءت آيات الوحى تترى، تعلم الناس الهدى ،وترشد العالمين صراطا مستقيما

آيات كريمة محكمة ، تحدثت عن الحب الإلهى ؛ والرضاء الربانى ، وعن إلهامات الفجور والتقوى ، وعن تزكية النفس ، وطهارة القلب ، وانفساح الصدر وعن المؤمنين الزاهدين ، الذين عاهدوا الله فوفوا بعهدهم ، وجاهدوا فيه فهداهم سبلهم ، وعلمهم من لدنه علما ، وأفاض عليهم نورا ، واصطفاهم واجتباهم ، وفتح عليهم بركات من السماء والأرض .

كما تحدثت عن مقامات القانتين ، والذاكرين ، والعابدين ، والساجدين ، والمخبتين ، والمحسنين ، والمسبحين بالغدو والآصال ، وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما .

وفى هذا الجو القرآنى المشرق، كانت حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ترتفع عالية سامقة ، وتقدم للدنيا أصفى وأسمى نموذج بشرى للكمال الإنسانى .

كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، صورة خلقية ، لكافة الكمالات القرآنية ، كان خلقه القرآن ، كما تقول السيدة عائشة رضوان الله عليها .

وكانت تتمثل فيه العبادات والطاعات والمجاهدات ، النفسية والقلبية والجسدية التى فاضت بها سور القرآن ، ودعت إليها ، وحضت عليها .

وكان فوق هذا كله يقوم الليل حتى تفطرت قدماه ، وحتى لتشفق عليه السيدة عائشة فتقول له « ألا ترفق بنفسك يارسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فيقول صلوات الله عليه . أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا » .

ومن هنا جاء مقام الشكر الصوفى ، كما انبثقت من هذا النموذج الإنسانى الكامل، سائر المقامات الصوفية ، من الزهد والتوكل والصبر والرضا والحب والمعرفة والفناء والمشاهدة .

ومضى الدكتور فى محاضرته ، ليعلن فى مسمع المؤتمر العلمى الأزهرى الذى احتشد فى قاعة المحاضرات الكبرى ، أن التصوف هو جوهر القرآن ، وهو حياة

الرسول ، ورسالة العلماء الاتقياء الأصفياء البررة ، أولى العزمات والوثبات الذين أخذوا ما آتاهم ربهم بتذوق وبقوة .

ثم هاجم فى عنف وبحجة دامغة ، رجال الاستشراق ، ومن سار فى مواكبهم من الباحثين الذين أسرفوا على الحق وعلى العلم ، فادعوا أن الروحانية الصوفية هى أقباس من فلسفة الهند ، وأمشاج من الرهبانية المسيحية ، أو استعارة من غير هذه وتلك من ملل ونحل ، لا يرضى عنها الإسلام ولا التصوف الإسلامى

ورأيت شباب الأزهر ، وعلماء الأزهر ، وأساتذة الأزهر ، وهم يصفقون للدكتور المحاضر ، ويخشعون إجلالا وإعجابا للاستشهادات الصوفية الرائعة التى ساقها من كلمات ، ابن الفارض ، ومحى الدين بن عربى ، ورابعة العدوية ، ورأيتهم وهم يؤمنون مع الدكتور المحاضر برسالة التصوف وبمقامه السامى من المبادىء الإسلامية الأصيلة .

ورأيت فى قاعة المحاضرات الأزهرية ، بداية فجر جديد ، لوحدة الفكر الإسلامى من جديد ، ولتعاون جانبه الروحى القلبى ، مع شقه العلمى العقلى ، لتعود للإسلام من جديد ، أمجاده ومكانته ، مع وحدة تفكيره ورسالته .

إن الدولة الإسلامية التى هيمنت على الدنيا قرونا وأحقابا ، الدولة التى أذلت القياصرة ، وحطمت عروش الأكاسرة ، ومشت مع الشمس تنشر على جبين الدنيا آدابها ورسالتها .

إنما اعتزت بأخلاقها قبل اعتزازها بقوتها ، وانتصرت بمثالياتها وروحها ، قبل أن تنتصر بجيوشها وسيوفها .

إن البنيان الثقافى الإسلامى ، الذى شكل فى التاريخ ، أكبر القوى الفكرية ، وأعظم القوى الروحية ، هو الذى أمد الأمة الإسلامية ، بقواها البناءة الفاتحة المنتصرة عبر التاريخ .

أمدها بزادها الروحى القلبى الصانع لأخلاقها وآدابها المربى لفدائيتها زهدها كما أمدها ببصرها العلمى العقلى ، الذى أعانها على خطوها الحضارى ، وبأسها الحربى .

ثم مشت الفرقة إلى القلوب والعقول ، وانفصم ما بينهما من صلات وعهود ، فوهن العالم الإسلامى ، وانطفأت مصابيحه ، وتمزقت أهدافه ، وانحلت وحدة تفكيره .

تمزق تفكير المسلمين شيعا ، وتبدد أحزابا ، وأخذ كل فريق يتعصب لمنهجه وعلمه ، ويناصب ما سواه العداء والبغضاء ، ونجم قرن الشيطان فأفنى المسلمون قواهم وبددوا حيواتهم ، فى مجادلات ومحاورات ، لا تغنى عن الحق شيئا ، ولا تصنع للقوة درعا أو جناحا .

إن النهضة الإسلامية الكبرى ، التى تلوح نذرها فى الآفاق ، مرتكزة على الوحدة العربية النامية ، لتدعو رجال الفكر الإسلامى ، والروحانية الإسلامية ، أن يراجعوا حسابهم ، وأن يوحدوا أهدافهم .

لقد جاء الإسلام أفقا ومجالا وهدى للإنسانية كافة ، ومن ثم اتسمت تعاليمه بالشمول والإحاطة والانفساح ، لتجد القلوب والعقول البشرية كافة فى ساحتها ورسالتها ، ما يرضى القلب . وما يرضى العقل ، وما يرضى الوجدان والحس ، وما يرضى العلم والبحث .

وكما يقول العلامة ابن القيم : « لقد اختلف الصحابة رضوان الله عليهم وتناقشوا ، وتعددت مذاهبهم فى البحث والنظر ، ولكن هذا النقاش فى البحث ، وهذا الخلاف فى المعرفة ، لم يمتد إلى التنابز بالألقاب ، أو تجريح الإيمان » .

لقد كان خلافهم ونقاشهم ، حيوية فى الفكر . وقوة فى العلم ، مع الاحترام والإجلال لحرية الفكر ، وحرية العلم ، ثم واجهوا الدنيا صفا واحدا كالبنيان المرصوص .

لقد جاء التعصب والتنابز ، من الجهل العلمى ، والضيق الفكرى ، واختفاء السماحة الإسلامية المشرقة ، وراء أكداس من عصبيات متزمتة جاهلة .

ومشى هذا التعصب المتزمت الغبى ، على وجه الحياة الإسلامية ، فشوه جمالها ونال من وحدتها ، ومزق قوتها ، وحطم هذه الحرية الواسعة التى هتف بها الإسلام وآمن بها .

إننا اليوم أحوج ما نكون ، إلى أن نلتقى جميعا على مائدة الإسلام ، يلتقى رجال البحث العلمى العقلى ، مع رجال البحث الروحى القلبى ، فكلاهما قوة فى الله وقوة فى المعرفة .

فالعالم الإسلامى فى حاجة إلى مربين روحانيين أخلاقيين ، حاجته إلى علماء متفقهين دارسين مشرعين .

إن الفكر الإسلامى ، بل الفكر الإيمانى العالمى ، تشن عليه اليوم حرب عوان تستهدف جاهلية مادية ، أقسى وأعتى من كل جاهلية عرفها التاريخ .

أمامنا تيارات ملحدة ، ودعوات متحللة ، وصيحات شهوانية صارخة .

وأمامنا جيل عالمى ، يتفلت من عصمة الايمان ، وأمم تنقلب على أعقابها ، وترتد إلى جاهليتها ، فتنبذ عقائدها ، وتجحد خالقها .

إننا فى عصر يدعون فيه إلى ترك الدين باسم العلم المادى ، وترك الأخلاق بدعوى التحرر النفسى !! ؟

إن الايمان اليوم فى مأزق ، فليوحد أبناء العقائد الربانية صفوفهم وتفكيرهم ليدافعوا عن دينهم ، وعن مستقبل الإنسانية والإيمان .

إننا فى عنان ثورة بناءة ، فيجب أن نرتفع إلى مستوى الأحداث ، يجب أن نرسم لنا أفقا ومثلا عليا ايجابية ، ترتكز على الروح ، كما ترتكز على العلم ، وتعتمد على الأخلاق ، كما تعتمد على الفكر .

إننا خير أمة أخرجت للناس ، وهذه الخيرية ليست امتيازا لجنس ، ولا تكريما لقبيل من الناس ، إنها خيرية انبثقت من العقيدة والرسالة ، وقامت على الروح والأخلاق .

إن المنهج الروحى الصوفى ، منهج أصيل فى بنـــاء التربية الإسلامية ، والحياة الإسلامية .

إنه المنهج الذى يجعل القلب حيا دافئا متصلا بالله ورسوله ، متحليا بمثاليات الإسلام وروحه ، إنه منهج العزائم والعزمات .

وإن منهج الأزهر فى العلم والمعرفة وتربية العقول وإعدادها لرسالة فى بنياننا الثقافى الإسلامى لا غنى عنه .

إننا فى حاجة إلى وحدة المنهجين ، وتفاهم بين الرسالتين ، لتنبثق منهما معا قوة إيمانية إيجابية دافعة فى الحقل الإسلامى العربى .

إن النهضة الإسلامية اليوم ، أحوج ما تكون إلى منهج علمى محدد مفصل ، وفى حاجة إلى سند روحى خلقى ، واضح مبين ، وعن هذا وذاك ، سنتحدث فى العدد القـــادم إن شاء الله : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » .

طه عبد الباقى سرور

كلمات
للقطب الرفاعى

- التوحيد وجدان فى القلب يمنع عن التعطيل والتشبيه .
- كم طيرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس ، وكم أذهبت من دين .
- الصوفى من صفا فلم ير لنفسه على غيره مزية .
- كل الأغيار حجب قاطعة فمن تخلص منها وصل .
- الشيخ من يلزمك الكتاب والسنة ، ويبعـــدك عن المحدثة والبدعة .
- الشيخ إذا نصحك أفهمك ، وإذا قادك دلك ، وإذا أخذك ينهض بك .